

الفصل الثاني

الفنُّ القرآنيُّ الجديد: الالتفات

تحدّث البلاغيّون كثيراً عن ظاهرة لغويّة أدخلوها في علم المعاني عُرفت بفنّ (الالتفات)، وهو أن يتحوّل المتكلّم فجأةً من صيغة خطابٍ إلى صيغة خطابٍ أخرى، كأن يلتفت من الغائب إلى المخاطب، أو من المخاطب إلى المتكلّم، أو من المفرد إلى الجمع. وربما أدخلوا فيه الانتقال من ماضٍ إلى مضارعٍ إلى أمرٍ، أو من اسمٍ إلى فعلٍ، أو غير ذلك، كقوله تعالى:

- ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: 112]

فتحوّل الخطاب هنا فجأةً من صيغة المفرد الغائب (فله أجره عند ربه) إلى صيغة جمع الغائبين (ولا خوفٌ عليهم) مع أنّ المقصود في كليهما واحد.

بين (الالتفات) في القرآن و(التجريد) في الشعر:

ولكنّ البلاغيّين، للأسف، لم يفرّقوا في طبيعة هذا الفنّ بين الآيات والأشعار الجاهليّة حين أتوا بشواهدهم في هذا الباب.

حقّاً لقد طغت الآيات في هذه الشواهد على الأشعار، وهذا اعترافٌ غير مباشرٍ بأسبقية القرآن في هذا المجال، ولكنّ هذه الأشعار لم تكن تصلح من الناحية العلميّة لأن توضع على صعيدٍ واحدٍ مع الآيات للتمثيل لهذا الفنّ.

ولنلق نظرةً سريعةً على هذا المقطع لأحد أهمّ من شرّعوا لعلم البلاغة وهو السكاكيّ (ت626هـ) لنتبيّن الفجوة الكبيرة بين شواهدهم الشعريّة وشواهدهم القرآنيّة. يقول السكاكيّ:

قال ربيعة بن مقروم (شاعرٌ جاهليٌّ / إسلاميٌّ):

بانت سعادٌ فأمسى القلبُ معمودا

وأخلفتك ابنةَ الحُرِّ المواعيدا

فالتفتَ كما ترى، حيث لم يُقل: وأخلفتني. ثم قال:

ما لم ألاقِ امرءاً جزلاً مواهبُهُ

سهلَ الفِناءِ رحيبَ الباعِ محمودا

وقد سمعتُ بقومٍ يُحمَدون فلم

أسمعَ بمثلِكَ لا حلماً ولا جودا

فالتفتَ كما ترى، حيث لم يُقل: بمثله. وقال:

تذكرتَ، والذكرى تَهيجُكَ، زينبا

وأصبحَ باقي وضليها قد تقصَّبا

وحلَّ بفلجٍ والأباتِرِ أهْلنا

وشطَّتْ فحلَّتْ عَمرةٌ فمُثقِّبا

فالتفتَ في البيتِين⁽¹⁾.

ومن الواضح أنّ الشاعر لم يفعل في الشاهد الأوّل أكثر من التحدّث إلى نفسه في أثناء تذكّره لسعاد، فجرد حديثه من الضمير العائد عليه في صدر البيت (أمسى القلب) قبل أن يفصح عن نفسه في عجز البيت فيُظهر ضميرَ المخاطب الذي يعني به نفسه (وأخلفتك) وهو أمرٌ عاديٌّ ومألوفٌ جدّاً لدى كلّ إنسان عند حديثه مع نفسه، ولا يستحقّ أن ينتمي إلى الفنّ البلاغيّ الذي نحن بصددّه.

ولم يفعل في الشاهد الثاني أكثر ممّا تملّيه طبيعة اللغة الإنسانيّة، أيّة

(1) السكاكيّ، أبو يعقوب يوسف. مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص 296 - 297.

لغة، حين يجد أحدنا أخيراً النموذج الإنساني الذي كان يبحث عنه، فيقول له: كنت أبحث عن إنسانٍ عظيم فوجدتُك. وهل أمام الشاعر خيارٌ آخر هنا غير الانتقال من صيغة الغائب (عن إنسانٍ) إلى صيغة المخاطب (فوجدتُك) فأين الالتفات، وأين البلاغة أيّاً كان نوعها؟

وفي الشاهد الثالث يعود الشاعر فيتحدّث، هنا أيضاً، إلى نفسه في البيت الأول، ولكنّ الحديث يتوسّع في البيت الثاني ليشمل أهله وأهل صاحبه (زينب). وبدهي أن يستخدم هنا صيغة الجماعة (أهلنا)؛ إذ لا خيار أمامه غير هذه الصيغة حين تتوسّع حلقة الحديث، وهو مثل قولك: رأيت صديقي إبراهيم فتذكّرت أيام طفولتنا، فهل يدخل اجتماع ضمير المتكلم المفرد في (صديقي) وهو (الياء) مع ضمير جماعة المتكلّمين في (طفولتنا) وهو (نا) تحت فنّ الالتفات؟ وماذا يبقى في كلّ كلامنا إذن ممّا ليس هو من باب الالتفات؟! باب الالتفات؟!

ومن المؤكّد أنّ ما حوّته كتب البلاغة من الشواهد الشعرية على فنّ الالتفات يدخل كلّها، إن كان له أن يدخل في أيّ فنّ من فنون البلاغة على الإطلاق، في باب التجريد، وهذا لا يمتّ إلى الفنّ الذي نحن بصدد الحديث عنه بأيّة صلة.

واقرأوا معي هذين البيتين اللذين يستشهد بهما السكاكي أيضاً في باب (الالتفات)⁽²⁾:

طحا بك قلبٌ في الجِسانِ طروبُ
بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصَرَ حَانَ مَشَيْبُ
يَكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلِيْهَا
وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

علقة الفحل (ت 20 ق.هـ)

(2) المرجع السابق، ص 298.

هل نستطيع أن نعثر هنا على أيّ نوع من أنواع الالتفات، أو ما يمتّ إلى الالتفات بصلة؟ لقد أصرّ أكثر البلاغيين، إن لم يكن كلّهم، على ذلك، والحقّ أنّنا لا نرى فيه، مهما تكلفنا، إلّا حديثاً عادياً مع النفس. فعلى عادة الشعراء، بل عادة أيّ منّا، يجرد علقمة من نفسه إنساناً يتوجّه إليه بضمير المخاطب (بك) فيحدّثه حديث النفس للنفس وكأنّه شخصٌ آخر أمامه، قبل أن يعود إلى نفسه فيتحدّث بضمير المتكلّم (يكلّفني).

وغالباً ما يقع هذا النوع من الخطاب في مطلع القصيدة، فيتحدّث الشاعر إلى نفسه بضمير المخاطب (أنت)، قبل أن يثوب إلى نفسه فيتحدّث بلسانه هو مستخدماً ضمير المتكلّم (أنا)، ثمّ يستمرّ عليه حتى النهاية. إنه أسلوبٌ إنسانيٌّ معروفٌ في العربية وفي غيرها من اللغات، ليس لدى الشعراء والكتّاب فحسب، بل لدى الأناض العاديين أيضاً.

كم يقول أحدنا لنفسه: ماذا جرى لك يا بسّام؟ إنّ قلبي غير مطمئنّ لما تعمله لنفسك، سأغيّر قرارِي، نعم هذا أفضل لك يا بسّام.. أترون كيف تنقلت في حديثي مع نفسي من المخاطب (لك يا بسّام) إلى المتكلّم (قلبي) إلى المخاطب مرّةً أخرى (تعمله لنفسك) إلى المتكلّم من جديد (سأغيّر قرارِي) ثمّ إلى المخاطب مرّةً ثالثة (لك يا بسّام).. فهل من حقّي أن أسمي كلامي هذا مع نفسي (التفاتاً) وهل من حقّي أن أضعه جنباً إلى جنب مع الفنّ القرآنيّ المعروف بهذا الاسم؟ أم هو ببساطة: مجرد (تجريد) يدخل تحته الكثير من أحاديثنا اليوميّة؟

خلط البلاغيين في تعريف (الالتفات):

لقد انعكس خلط البلاغيين بين (الالتفات) و(التجريد) على فهمهم لهذا الفنّ القرآنيّ، فخلطوا، حتّى في شواهدهم القرآنيّة، بين الالتفات الحقيقيّ والتحوّل الطبيعيّ للحديث بين ماضٍ ومضارعٍ وأمر، تحوّلاً لا مفرّ منه أحياناً حتّى في أحاديثنا العاديّة.

وهذا جلال الدين السيوطي، وقد صحّح أخطاء الكثيرين ممّن ألف قبله

في كتابه المرجعيّ "الإتقان في علوم القرآن" ، يقع في هذا المحذور عندما يعدّد أنواع الالتفات فيأتي من ضمنها بأمثلةٍ على (الالتفات بين الأفعال) فيقول:

مثاله من الماضي إلى الأمر: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا...﴾ [الحجّ: 30].

ومن المضارع إلى الأمر: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ [هود: 54].

ومن الأمر إلى الماضي: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا﴾ [البقرة: 125].

وإلى المضارع: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 72]⁽³⁾.

والواضح أنّ الحالة في الآية الأولى لا تخرج عن مثل قولنا: أعطيتك أوامري فأسرع بتنفيذها،

والحالة في الآية الثانية لا تخرج عن مثل قولنا: أنا أعرف الحقيقة فأعرفوها أنتم،

والحالة في الآية الثالثة لا تخرج عن مثل قولنا: زوروا صديقكم فقد أخبرناه ببيتكم لزيارته،

والحالة في الآية الرابعة لا تخرج عن مثل قولنا: اقرأوا الكتاب جيداً فمنه سئسألون في الامتحان.

ولو قارنّا هذه الآيات، وكذلك الجمل التي مثلنا بها، بأيّ شاهدٍ نستشهد به في هذا الفصل، فسوف يتبيّن لنا بسهولة أن لا علاقة لكلّ هذا بفنّ الالتفات.

(3) السيوطي، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج2، ص169 - 170. ولعلّ السيوطي انزلق إلى هذا الخطأ مستنداً إلى من نقل عنهم في هذا الباب، ولا سيما التنوخي وابن الأثير.

إنّ من العبث محاولة البحث عن مثل هذا الفنّ في الشعر أو في أيّ فنّ قوليّ آخر؛ إذ لا تدخل أمثلتها وشواهدنا في هذا الباب، والفجوة كبيرة بينه وبينها. ومن السهل أن نبيّن مدى نضج هذا الفنّ وسهولته ووضوحه، وكذلك مدى تميّزه وتنوّعه، لو عدنا إلى الآيات القرآنيّة التي تتضمّنه، بأنواعه الكثيرة المختلفة، وهي بالمئات؛ إذ لا تكاد تخلو صفحة واحدة من القرآن الكريم من عددٍ من الالتفاتات قلّ أو كثير.

تفرّد القرآن بفنّ (الالتفات):

إنّ (الالتفات) في القرآن الكريم فنّ جديدٌ كلياً لم يعرفه الأدب العربيّ قبل القرآن ولا بعده، وهو ما يزال حتّى الآن بعيداً عن متناول أقلامنا، بل لا أعلم له شبيهاً في أيّة لغةٍ أخرى.

وهو ليس مجرد حالةٍ عرضيّةٍ تمرّ مصادفةً هنا أو هناك، بل يشكّل ظاهرةً بيانيّةً اختصّ بها القرآن وحده. وعندما أقول (ظاهرة) فإنّما أشير إلى الكثافة التي يتردّد بها هذا الفنّ، بأنواعه المختلفة، في القرآن الكريم، وهي ليست كثافةً عاديّةً.

اقرأوا معي هذه الآيات الثلاث الأولى من سورة (الإسراء) لنرى كيف تنقل الضمير العائد على ذي الجلالة ستّ مرّاتٍ في الآيات الثلاث، بين: هو، وأنا، ونحن:

﴿سبحان الذي أسرى [هو] بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا [نحن] حوله لنريه من آياتنا إنه [هو] هو السميع البصير. وآتينا [نحن] موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني [أنا] وكيلاً. ذريةً من حملنا [نحن] مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾

وهكذا انتقل تعالى في خطابه عن نفسه من صيغة الغائب المفرد (هو) أسرى) إلى صيغة المتكلّمين (نحن باركنا) إلى صيغة الغائب المفرد من جديد (إنه هو) إلى صيغة المتكلّمين مرّةً أخرى (آتينا نحن) إلى صيغة المتكلّم المفرد

(من دوني أنا) إلى صيغة المتكلمين من جديد (حملنا نحن). وحين تتكرر الحالة اللغوية بمثل هذه الكثافة في نصّ أدبي لا يعدو بضعة أسطر، فمن العيب أن نتردد في أن نطلق عليها اسم (ظاهرة) وأن نكتفي بالنظر إليها على أنّها مجرد "حادثة لغوية" عفوية صادف ورودها هنا أو هناك.

ولو نظرنا في الآيات التالية لبرزت لنا حقيقة هذا الفنّ البيانيّ الجديد: واضحاً أشدّ ما يكون الوضوح، ومتنوعاً أكثر ما يكون التنوع، وعميقاً لا يتردد الناقد الحصيف في الحكم بأنه حقّاً فنٌّ جديدٌ ومختلف، لم يعرفه العرب، وربما لم تعرفه أية لغةٍ أخرى، قبل القرآن الكريم ولا بعده. وقد أشرنا إلى مواضع الالتفات بخطوطٍ تحت الكلمات:

1. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17]
2. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]
3. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: 125]
4. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: 143]
5. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: 95]
6. ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [الأنفال: 41]
7. ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس: 22]
8. ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: 15]
9. ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ [الإسراء: 63]
10. ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [الإسراء: 64]

11. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: 60]
12. ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: 87]
13. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الفصص: 59]
14. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت: 23]
15. ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَشِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: 9]
16. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 21]
17. ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: 23]
18. ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينِ. فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 46 - 48]
19. ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر: 27 - 29]
20. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ. فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْظَىٰ﴾ [الليل: 13 - 14]

أترون كيف انتقل تعالى في الآية الأولى فجأة من المفرد الغائب (ما حوله) إلى جمع الغائبين (بنورهم) رغم أن من يتحدث عنه، أو عنهم، هو نفسه لم يتغير!

وكيف انتقل في الآية الثانية من جمع المخاطبين (كلوا) إلى جمع الغائبين (ظلمونا) رغم أن من يتحدث عنهم لم يتغيروا!

وكيف انتقل في الآية الثالثة من جمع الغائبين (الناس) إلى جمع المخاطبين (واتخذوا) والحديث ما يزال عن هؤلاء الناس أنفسهم!

وكيف انتقل في الآية الرابعة من المفرد المخاطب (كنت) إلى المفرد الغائب (يتبع الرسول) رغم أن الحديث بدأ وانتهى عن الرسول نفسه ﷺ!

وكيف انتقل في الآية الخامسة من الفعلية (يُخرج) إلى الاسمية (مُخرج) والحديث ما يزال متصلاً عن الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية السادسة من صيغة المفرد الغائب (أمنتم بالله) أي (هو) إلى صيغة جمع المتكلمين (أنزلنا) أي (نحن) مع أن الحديث ما يزال عن الله تعالى ومن قبل الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية السابعة من جمع المخاطبين (كنتم) إلى جمع الغائبين (بهم) وكلا المخاطبين والغائبين واحداً!

وكيف انتقل في الآية الثامنة من صيغة المفرد الغائب (يريد) إلى صيغة جمع الغائبين (إليهم) مع أن من تحدّث عنهم الآية هم أنفسهم لم يتغيروا!

وكيف انتقل في الآية التاسعة من جمع الغائبين (منهم) إلى جمع المخاطبين (جزاؤكم) والمعنيون هم أنفسهم في الحالين!

وكيف انتقل في الآية العاشرة من المفرد المخاطب (وشاركهم) إلى المفرد الغائب (يعدّهم) ومحور الحديث ما يزال هو الشيطان لم يتغير!

وكيف انتقل في الآية الحادية عشرة من صيغة المفرد الغائب (وأنزل) إلى صيغة جمع المتكلمين (فأنبتنا) مع أن الحديث ما يزال عن الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية الثانية عشرة من صيغة المضارع المبني للمجهول (يُنْفَخ) إلى صيغة الماضي المبني للمعلوم (فَفَزَع) مع أن الحدثين كليهما في المستقبل!

وكيف انتقل في الآية الثالثة عشرة من صيغة المفرد الغائب (رُبُّكَ) إلى صيغة جمع المتكلمين (آياتنا) والحديث ما يزال عن الله تعالى ومنه!

وكيف انتقل في الآية الرابعة عشرة من صيغة المفرد الغائب (بآيات الله) إلى صيغة المفرد المتكلم (رحمتي) والمقصود بالحديث في الحالين هو الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية الخامسة عشرة من صيغة المفرد الغائب (أرسل)

إلى صيغة جمع المتكلمين (فُسُقناه) والحديث ما يزال عنه تعالى ومنه!
وكيف انتقل في الآية السادسة عشرة من المفرد الغائب (أوحى) إلى جمع
المتكلمين (زَيِّتًا) والحديث هو أيضاً ما يزال عنه تعالى ومنه!
وكيف انتقل في الآية السابعة عشرة من المفرد الغائب (له) إلى جمع
الغائبين (خالدين) مع أنّ الحديث ما يزال عمّن يعصي الله ورسوله!
وكيف انتقل في الآية الثامنة عشرة من صيغة جمع المتكلمين (أتانا) إلى
صيغة جمع الغائبين (تنفعمهم) مع أنّ الحديث ما يزال عن الكفار أنفسهم!
وكيف انتقل في الآية التاسعة عشرة من صيغة المفرد الغائب (هو) في
قوله تعالى (ربك) إلى صيغة المفرد المتكلم (أنا) في قوله تعالى (عبادي)
والمتحدّث هو هو لم يتغيّر!
وكيف انتقل في الآية العشرين من صيغة جمع المتكلمين (لنا) إلى صيغة
المفرد المتكلم (فأنذرتكم) مع أنّ الحديث ما يزال عن الله تعالى ومنه!

التفات المشهد:

ومن الالتفات القرآني ما يمكن أن نطلق عليه (التفات المشهد). فكثيراً ما يحدث أن يلتفت السياق في القرآن من مشهد إلى آخر مختلف عنه دون سابق إنذار، وبغير إشارة لفظية تمهّد لهذه الانتقال. ومنه قوله تعالى:

﴿الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم وأولئك هم المهتدون. إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوَّع خيراً فإن الله شاکرٌ عليم. إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ [البقرة: 156 - 159].

فقد انتقل بنا المشهد هنا من وصف مواجهة المؤمنين لمصائبهم بالصبر والإيمان ووصف أجرهم الكبير عند الله، في الآيتين الأوليين، إلى وصف

شعائر الطواف في الحج بين الصفا والمروة، في الآية الثالثة، ثم إلى الحديث في الآية الرابعة عمّن كتموا بعض ما أنزل الله على الأنبياء من كتب، وعقابهم الكبير عند الله، وهي ثلاثة مشاهد متباعدة الموضوعات، وإن كانت جميعاً تصبّ في محور عامّ هو تأسيس عقيدة المسلم، وموقع الدين الجديد من العقائد الأخرى، وتهيئته لمواجهة التحدّيات ممّن حوله، وهذا في الحقيقة هو المحور العامّ للسورة.

هذا النوع من (الشموليّة) في الموضوعات سبق أن تعرّضنا له عند الحديث عن (شموليّة الآية الكريمة) في فصل (الشخصيّة اللغويّة للقرآن). فالصيغة الشموليّة لا تقتصر على الآية الواحدة، وإنّما هي خصيصةٌ أساسيّةٌ في نظام العرض الموضوعي للمحاور العامّة في معظم سور القرآن الكريم.

فالمشهد يلتفت مثلاً في آيات سورة (الحاقّة) حين ينتقل الحوار على نحو مفاجئ من طرفٍ إلى آخر دون سابق تمهيد:

- ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقّة: 28-32].

فبعد أن كان الحديث على لسان أحدٍ من أوتوا كتابهم بشمالهم، فهو يتحرّس على نفسه في الآيتين الأوليين وقد فقد أيّ أمل في ماله وسلطانه لإنفاذه من مصيره البائس، يتوقّف حديث هذا الشخص فجأةً في الآية الثالثة، ونسمع الأمر الإلهي الصادر بحقه من غير أيّ تمهيدٍ أو رابطٍ لفظيٍّ لهذه الانعطافة: خذوه..

التفات الشخصيات:

ويقترب من التفات المشهد نوعٌ آخر من الالتفات يكاد يتداخل معه وهو التفات الشخصيات. وفيه ينتقل الحديث فجأةً من شخصٍ إلى آخر دون إنذار، انتقالاً تتداخل معه الشخصيتان فلا نكاد نتبيّن من منهما المتكلّم. وأوضح نموذج لهذا النوع تلك الآيات التي تظهر فيها براءة يوسف من التهمة التي رمته بها امرأة العزيز:

- ﴿قالتِ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاودُهُ عن نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمَنِ الصّادِقِينَ. ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .
فقد تنقّل الحديث في الآيات الثلاث بين امرأة العزيز وسيّدنا يوسف على نحو تداخلت معه شخصيّتهما. إنّ من الواضح لنا أنّ المتحدّث في الآية الأولى هو امرأة العزيز، لكن من الصعب أن نقطع بحقيقة المتحدّث في الآية الثانية، وربّما الثالثة أيضاً: أهو يوسف، أم هو امرأة العزيز؟

التفات الحدث:

وكثيراً ما يقع الالتفات في القرآن من حدثٍ إلى آخر متجاوزاً حدثاً آخر تخلّل الحديثين بحيث يُفهم هذا الحدث المختفي من خلال سياق الآيات. ومن ذلك آية سورة (البقرة):

- ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحَجَرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عِيناً﴾ [البقرة: 60].

ففي التعبير البشريّ كان يمكن لسرد هذا الحدث أن يكون على النحو التالي: فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عِيناً. فهناك إذن ثلاثة أحداثٍ مفترضةٍ في الآية: (أ) أمر الله تعالى لموسى بأن يضرب الحجر بعصاه (ب) تنفيذ موسى للأمر الإلهيّ وقيامه بضرب الحجر (ج) انفجار العيون الاثنتي عشرة منه. ولكنّ الحدث الثاني (ب) اختفى تماماً من الآية وكان علينا أن نقدّره من خلال مجرى السياق إذا أردنا لأحداث القصة أن تكتمل.

التفات الزمن:

ومن الالتفات القرآنيّ كذلك تداخلُ الأزمان، فيتوحّد الماضي والحاضر والمستقبل في زمنٍ واحد. إنّها الأبعاد الإلهيّة الخاصّة للزمان والمكان، وهي لا تدخل تحت تعريفاتنا البشريّة القاصرة، فإذا كانت السنّة عند الله كآلف سنّة أو كخمسين ألف سنّة في حساباتنا البشريّة؛ فكيف تكون حسابات الزمن إذن في المقياس الإلهيّ:

- ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47].
- ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

أين تنتهي عنده تعالى إذن حدودُ الزمن الماضي لتبدأ حدود الزمن المستقبل، وهل الماضي هو ماضٍ، والحاضر هو حاضرٌ، والمستقبل هو مستقبلٌ حقاً كما هي في مفهوماتنا البشريّة؟

إنّ العبارات القرآنيّة كثيراً ما تنتقل بين الأزمان البشريّة الثلاثة غير آبهة بمقاييسنا الدنيويّة لها، فتحرّر من قيودنا وتخرج عن الأبعاد التي رسمناها لها في أذهاننا المحدودة. ولنقف معاً عند هذه الآيات لنرى كيف تتماهى الحدود وتتشابك بين الماضي والحاضر والمستقبل:

- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: 166] (أي سيترّأون وسيرون في مفهومنا البشريّ)
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَدُّ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27] (أي سيوقفون يوم الحساب فيقولون)
- ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75] (أي أريناه)
- ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: 38] (أي وصنعه)
- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: 43] (أي رأيتُ)
- ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26] (أي من ستستأجره)
- ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: 25] (أي ستُنزل)
- ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعِنَاكُمْ وَالأُولِينَ﴾ [المرسلات: 38] (أي سنجمعكم)
- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا. وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا. وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: 18 - 20] (أي ستفتح فتكون، وتُسير فتكون)

- ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ [النازعات: 35 - 36] (أي سُبِّرَز)

- ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 34] (أي فغداً)

- ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا . فَوسَطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: 2 - 5] (أي فالمثيرات والموسطات)

ومن يتأمل في آيات القرآن الكريم يجد الكثير من هذا التداخل الزمني، بل التداخل المكاني في بعض الأحيان. وقد غابت حقيقة هذا التداخل عن العلامة الراحل محمد عبد الخالق عضيمة حين انزلق إلى محاولة إثبات أنّ أداة النفي (لم)، وخلافاً لقواعدنا، لا تقلب معنى المضارع إلى ماضٍ في بعض الآيات، فقال: "في القرآن آياتٌ بقي معنى المضارع بعد (لم) فيها على معنى الاستقبال ولا يراد بالمضارع بعدها معنى المضيّ، ولم أجد للمُعربين ولا للمفسرين أقوالاً في هذه الآيات، وهي:

- ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهَم يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46].

- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47].

- ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: 52].

- ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: 53].

- ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ﴾ [القصص: 64].

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: 12-13].

- ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 56] (4).

والواضح أنّ هذه الآيات تدخل كلّها تحت الظاهرة الزمنية القرآنية حيث يكثر الحديث عن أحداث المستقبل، ولا سيّما يوم القيامة، بصيغة الماضي وكأنّها قد حدثت حقاً.

إنّ هذا يقرب إلى أذهاننا بعض الشيء ما يؤكّده علماء الرياضيات والفضاء اليوم من تداخل الزمان والمكان في الفضاء الخارجي تداخلاً يخرج بهما عن تعريفاتنا الأرضية، وهو ما لا يدخل تفصيله في مجال بحثنا.

التفات الجنس:

وكثيراً ما يأخذ فنُّ الالتفات في القرآن أشكالاً أكثر تطوراً ممّا ذكرنا من أمثلة. ومن أشدّ هذه الأشكال بروزاً ولفتاً للنظر التذكير حيث نتوقع التأنيث، والتأنيث حيث نتوقع التذكير. ويتكرّر هذا الشكل، على قلته مقارنةً بالأشكال السابقة، مرّاتٍ عديدةً في القرآن، هذا بعضها:

- ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

- ﴿وَقَطَعْنَا لَهُمْ آسَافًا أُمَّمًا﴾ [الأعراف: 160] (5).

- ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99].

- ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: 139].

- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160] (6).

(4) عضيمة، محمّد عبد الخالق. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، مرجع سابق، ج 2، ص 505.

(5) لاحظ أنّ الآية، خلافاً لأعرافنا اللغوية، أثّرت العدد بدلاً من تذكيره، كما جمعت المعدود "أسباطاً" بعد العدد (12) بدلاً من إفراده.

(6) ويورد محمد عبد الخالق عضيمة قاعدةً لهذه الحالة القرآنية اقترحها الرضي في شرح الكافية فيقول: "إن كان المميّز - في العدد - صفةً نائبةً عن موصوفها روعي الموصوف في التذكير والتأنيث" فيكون التقدير على هذا: عشر حسناتٍ أمثالها. عضيمة، محمّد =

- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ [الأنفال: 35].
- وَإِنْ جَنَّحُوا لِلسَّلَامِ فاجنح لها﴾ [الأنفال: 61].
- ﴿مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 117].
- ﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعِيدٍ﴾ [هود: 83].
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ [النحل: 48] (7).
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: 66].
- ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: 67].
- ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (أي حاصراً) [الإسراء: 8].
- ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ [الفرقان: 49] (8).
- ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: 4].
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105].
- ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17].
- ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: 11].
- ﴿لَا تَكُلُونَ مِنَ الشَّجَرِ مِنْ زَوْقِهِمْ. فَمَا لَتَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾ [الواقعة: 52 - 53].
- ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4].
- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ [المُلك: 27].
- ﴿السَّمَاءِ مَنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: 18].
- ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14].

= عبد الخالق. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، مرجع سابق، ج10، ص176 و191. مع التذكير هنا بأن النحويين لم يألوا جهداً في إيجاد حلولٍ للمأزق النحويّة التي وضعهم فيها القرآن الكريم، حتّى إن لم يوفّقوا في كثيرٍ من الأحيان إلى إخضاع لغة القرآن المتفرّدة إلى قواعدهم القاصرة.

(7) وتقبّو الظلال: رجوعها بعد انتصاف النهار، فالفيء لا يكون إلّا بعد الظهر، وما كان في الصباح فهو الظلّ.

(8) وتكرّر الحالة نفسها في (الزخرف: 11)، وفي (ق: 11).

- ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [عبس: 11 - 12].

وكعادتهم دائماً، أصرَّ النحويّون على إيجاد مسوّغٍ نحويّ يستند إلى قواعدهم البشريّة المحدودة لمعالجة هذه الحالات القرآنيّة الفريدة. ومن الواضح أنّ تسويغاتهم سادها غالباً الافتعال والتكلف وليّ عنق القاعدة أو المعنى على السواء، وظلّ معظمهم يلهث، عبثاً، راکضاً خلف الآية وهو يحاول أن يمسك بتلابيب الإعجاز القرآنيّ المحيّر ويطوّعه لقواعده النحويّة القاصرة التي وُضعت بعد نزول القرآن الكريم بعشرات السنين، وليس قبله، وكان من المفروض أن تستند قواعدهم إلى لغته أولاً، وليس إلى لغة الشعر، بوصفه أهمّ نصّ عرفه العرب حتى وقت كتابة هذه القواعد، ولكنهم عجزوا، وهذا بدّهيّ، عن الإحاطة به وبلغته الجديدة المعجزة.

التفات العدد (المفرد والمثنى والجمع):

ومن هذا الباب أيضاً ما يتبادل فيه المفرد والمثنى والجمع مواقعهما اللغويّة أو النحويّة، فيحلّ الواحد في اللغة القرآنيّة محلّ الآخر من غير أيّ ارتباط أو استنادٍ إلى أعرافنا البشريّة المتعاهدة، أو في الأعراف اللغويّة للحديث النبويّ أيضاً، كما توضّحه لنا الآيات التالية، وهي غيضٌ من فيض الحالات الكثيرة التي تشكّل ظاهرةً شديدة الوضوح في لغة القرآن الكريم:

- ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: 29] (فلم يقل: فسوّاها)

- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: 257] (فلم يقل: وليّهم، أو: الطواغيت)

- ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: 135] (فلم يقل: به)

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا وَسَقَّنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: 57] (فلم يقل: ثقيلاً)

- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 26] (فلم يقل: قليلون)

- ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6] (فلم يقل: آخر)

- ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: 132] (فلم يقل: عَمِلَ)
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 46] (فلم يقل: بها)
- ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 62] (فلم يقل: يرضوهما)
- ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89] (فلم يقل: ببعيدين)
- ﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: 69] (فلم يقل: مختلفة)
- ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ [الكهف: 106] (فلم يقل: أولئك)
- ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117] (فلم يقل: فتشقياً)
- ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: 5] (فلم يقل: أطفالاً)
- ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31] (فلم يقل: الأطفال، أو: الذي لم يظهر)
- ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [النور: 48 و 51] (فلم يقل: ليحكمما)
- ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74] (فلم يقل: أئمة)
- ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: 4] (فلم يقل: خاضعة)
- ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 16] (فلم يقل: رسولا)
- ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: 48] (فلم يقل: أرهاط)
- ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: 27] (فلم يقل: مختلفة)
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21] (فلم يقل: تسور، أو تسورا)
- ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ [القمر: 44] (فلم يقل: منتصرون)
- ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِيمٌ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فِتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: 20] (فلم يقل: تُحْصوهما)

هذا التداخل بين الأجناس لا يمكن أن يصدر إلا عمّن خلقها، فالحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل تبهت وتضمحلّ عند من خلق الزمن وعرفه في القرآن بغير تعريف البشر له. والفوارق بين المفرد والمثنى والجمع يمكن أن تأخذ أيضاً شكلاً مختلفاً، أو تتداخل أو تتفاعل عند من خلق هذه الأجناس ثم ميّز بينها.

التفات العاقل وغير العاقل:

إنّ الحدود اللغويّة المطلوبة في التعبير البشريّ يمكن أن تختفي بين العاقل وغير العاقل عند من يعلم أنّ جميع هؤلاء، بطريقةٍ أو بأخرى، عاقلون، وهو الذي يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، ويقول أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: 21]. وهكذا يتحوّل غير العاقل في كثيرٍ من الآيات إلى عاقلٍ يتكلّم أو يُخاطب أو يستجيب أو يسجد أو يسبح لله:

- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: 44].
- ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: 68].
- ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69].
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 18].
- ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: 18].
- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: 72].
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: 10].
- ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18].
- ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

وهكذا يتداخل في لغة القرآن الكريم استعمال ضمائر العاقل وغير العاقل، فلا نجد في بعض الآيات حدوداً واضحةً بينها، مثلما اعتدنا في لغتنا البشرية، كما في الآيات التالية:

- ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 22] (فلم يقل: مَنْ)
 - ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4] (فلم يقل: رأيتها ساجدة)
 - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33] (فلم يقل: يسبح)
 - ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: 6] (فلم يقل: مَنْ)
 - ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 81] (فلم يقل: مثلها)
 - ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فُصِّلَتْ: 21] (فلم يقل: شهدت، ولم يقل: قالت، ولم يقل: أنطقتي)
 - ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: 5-7] (فلم يقل: وَمَنْ)
 - ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: 3] (فلم يقل: وَمَنْ)
 - ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: 3] (فلم يقل: مَنْ)
- وهذا كله نوعٌ من الالتفات اللغوي، بما يمثله من خروج على المألوف، وما يحققه من التفاتٍ في أذهاننا؛ من المتوقَّع إلى غير المتوقَّع، ومن العُرف والمعهود إلى ما ليس معروفاً ولا معهوداً في لغتنا البشرية.

التفات النصب:

ولكن أكثر ما يشدنا فيما يمكن انضواؤه في القرآن تحت هذا الفن هو ما أستطيع أن أسميه (الالتفات النحوي).

ويتمثل هذا النوع بشكلٍ خاصٍ في حالات النصب الطارئة والمفاجئة

للقارئ، وهي حالاتٌ أربكت النحويين على مدى العصور، وحاولوا جهدهم، كما هو شأنهم مع أية حالةٍ قرآنيّةٍ مستعصيةٍ مخالفةٍ لقواعدهم البشريّة القاصرة، أن يوجدوا المسوّغات النحويّة لحالات النصب هذه، حتّى إن اضطرّهم الأمر إلى توسيع القاعدة النحوية بحيث تستجيب للوضع الجديد للآية، أو إلى الابتعاد بهذه الآية، أحياناً، عن المعنى المباشر المطلوب، كما فعلوا مع قوله تعالى:

- ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتهم أجراً عظيماً﴾ [النساء: 162].

فمحيى لفظ (المقيمين) في الآية منصوباً، بين عدّة مرفوعاتٍ قبله وبعده، حاصر النحويين ولم يدع أمامهم فضاءً يتحرّكون فيه لتسويغ هذا النصب المفاجئ وغير المتوائم مع قواعدهم البشريّة المحدودة، فكان لهم هذه التسويغات العجيبة التي يسوق لنا الشوكاني بعضها:

واختلّف في وجه نصبه على قراءة الجمهور على أقوال:

الأوّل قول سيبويه إنّه نصب على المدح: أي: وأعني المقيمين . . .

وقال الكسائي والخليل: هو معطوفٌ على قوله (بما أنزل إليك) قال الأخفش: هذا بعيدٌ لأنّ المعنى يكون هكذا: ويؤمنون بالمقيمين. ووجهه محمّد بن يزيد المبرّد بأنّ المقيمين هنا هم الملائكة، فيكون المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك وبما أنزل من قبلك وبالملائكة.. وحكى أنّ النصب على المدح بعيدٌ لأنّ المدح إنّما يأتي بعد تمام الخبر، وخبر (الراسخون) هو قوله (أولئك سنوتهم أجراً عظيماً).. وقيل: إنّ (المقيمين) معطوفٌ على الضمير في قوله (منهم) وفيه أنّه عطفت على مضمير بدون إعادة الخافض⁽⁹⁾.

(9) الشوكاني، محمّد بن عليّ. فتح القدير، مرجع سابق، ج 1، ص 537. وإن كان لي أن أخوض مع النحويين خوضاتهم، في هذه الحالة خاصّة، من غير أن ينطبق هذا بالضرورة على حالات النصب الأخرى غير العاديّة في القرآن، فأرى أنّ كتابتها بالياء جاءت =

وبدهي أن يجد النحويون في النهاية تسويغاً نحوياً لكل حالات النصب؛ حتى إن لووا، أحياناً، عنق المعنى أو عنق القاعدة، من غير أن يتذكروا أن القرآن نزل قبل قواعدهم، وأن آية أمة تُقرر أن تضع القواعد للغتها لا بد أن تنطلق أولاً من أقدم وأول كتاب وضع بهذه اللغة، فلا تفرض ما تقترحه

= نتيجة لتقارب لفظ الألف والواو والياء إلى درجة كثيراً ما تتداخل معها هذه الحروف الثلاثة عند العرب. ففي بيئة واحدة كبيئة البلاد الشامية مثلاً تقترب الألف من الياء في عامية الساحل السوري واللبناني ومنطقة حلب فتُنطق الألف في ألفاظ مثل (رجال، جبال، جمال) بما يقترب من الياء المخففة (رجيل، حبيل، جميل) وتقترب الألف من الواو عند أبناء مدن جبلة وطرطوس وطرابلس خاصة، فتُنطق الألف في كلمات مثل (نهار، مبارك، صغار) هكذا بما يشبه الواو المخففة (نهور، مهورك، صخور) وكثيراً ما تقترب الياء من الألف عند أهل جزيرة أرواد فتُلَفظ في كلمات مثل (زيت وبيت) وكأنها أَلَفٌ، هكذا (زات ويات). وتردد هذه الظاهرة في كثير من ألفاظ المنطقة، وعلى الأخص عند اجتماع أكثر من حرفٍ منها في كلمة واحدة كما وقع في لفظ (المقيمين) هنا. إن هذا كله قد يغيّر من لفظ الحروف الثلاثة، في النبر أو المد أو الإمالة، تغيّراً قد ينعكس على كتابتها أيضاً عند النساخ الأوائل، ولا سيّما أن قواعد الإملاء العربية لم تكن قد استقرت بعد في تلك المرحلة المبكرة جداً من تاريخ الإملاء العربي، فكتبوا ألفاظاً في القرآن مثل (الصلاة والزكاة والغداة والحياة والنجاة والرّيا) هكذا بالواو (الصلوة، الزكوة، الغدوة، الحيوه، النجوة، الربوا)، ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن المسلمين الناطقين بالفارسية اليوم يلفظون الألف في مثل هذه الألفاظ، أو في غيرها أيضاً، أقرب إلى الواو. كما تجدر الإشارة هنا إلى أن لفظ (المقيمين) قرئ بالواو أيضاً من قبل الحسن رضي الله عنه ومالك بن دينار وآخرين. ومما يدغم وجهة نظرنا هذه عن تداخل لفظ الحروف الثلاثة، ومن ثم اختلاط كتابتها عند الكتاب، ما أورده السيوطي في (الإتقان) عن عروة. قال: سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى (إن هذان لساحران) وعن قوله تعالى (والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) وعن قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) فقالت: يا ابن أخي هذا عمل الكتاب، أخطأوا في الكتاب (أي الكتابية). انظر: السيوطي، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج 1، ص 371. وينقل عبد الخالق عضيمة عن اختلاف القراء السبعة في حركة التنوين، بين فتح أو ضم أو كسر، في حالات خاصة من مثل قوله تعالى "فتيلاً" (النساء: 49) و"بأس بعض" (الأنعام: 65) و"غير متشابه" (الأنعام: 99) وحالات عديدة أخرى، وكذلك عن اختلافهم، عند التقاء الساكنين في بعض الحالات، بين تحريك نون (أن) بالكسرة أو الضمة، وبين ضم لام (قل) أو كسرها، وبين تحريك دال (قد) بالكسرة أو الضمة. انظر: عضيمة، محمد عبد الخالق. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، مرجع سابق، ج 4، ص 32.

طاقاتها البشريّة المحدودة من قواعد على هذا الكتاب، بل تفرض على نفسها ما يقترحه هو من قواعد. وقد أوجد عملهم هذا ثغرةً كبيرةً في هذا الباب ينفذ منها المستشرقون إلى الطعن في القرآن، فيصدّقهم من يجهل أبسط الأسس في التعامل مع المصادر الأوّليّة الضروريّة في عمليّة تأسيس القواعد النحويّة والإملائيّة لأية لغةٍ بشريّة دون استثناء.

وإذا كنّا ندرك أن الواضع الأوّل للغة، الذي علّم آدم الأسماء والكلمات كلّها، هو الله، فهل نستغرب إذا خرج علينا هذا الصانع الأوّل يوماً بلغةٍ يخالف بها الأعراف التي تواضع عليها البشر، حتّى ذلك الوقت، فيها؟

وحتى لا نغمط النحويّين الأوائل حقّهم علينا أن نعترف بأنّه لم يكن أمامهم، حين بدأوا يضعون الخطوط التفصيليّة لقواعد اللغة العربيّة، إلا خياران لا ثالث لهما: سهلٌ، وصعب. أمّا الصعب، وربّما "المستحيل"، فهو أن يجعلوا القرآن مصدرهم الأوّل الذي يرجعون إليه في وضع قواعدهم، بوصفه، على الأقلّ، أوّل كتابٍ وُضع باللغة العربيّة.

إنّهم كمن يقود سيّارته في طريقٍ معبّد؛ فيعترض طريقه جبلٌ شاهقٌ ووعرٌ يخترقه نفقٌ مخصّصٌ لمرور القطارات، فإمّا أن يتسلّق بسيّارته ذلك الجبل متحملاً مشاقّ صعوده ومخاطر مسالكة وصخوره وحُفره، وربّما خطر السقوط عنه، وإمّا أن يختار الطريق الآخر، الصعب ولكن الأقلّ خطورةً، فيدخل بسيّارته نفقَ القطارات، من غير أن يأبه بما قد يصيبها، ويصيب سكة القطار أيضاً، من أذىٍ شديد.

ولأنّ للقرآن لغته الإلهيّة التي يعجز عنها البشر، أو لأقلّ لغته "المستحيلة" كما أثبتنا حتّى الآن، فمن الخطورة على النحويّين محاولة تسلّق لغته الشاهقة بقواعدهم البشريّة المحدودة القاصرة، وإذن فلم يكن أمامهم إلاّ القبول بالأذى الأقلّ خطورةً، والذهاب إلى الخيار الثاني: الدخول بالآيات في نفق قواعد أعرافهم اللغويّة التقليديّة الجاهزة، والمستمدّة من الشعر الجاهليّ أولاً، حتّى إن لحق الضرر ببعض تلك القواعد، وفي بعض

الأحيان، بمعاني الآيات التي حاولوا أن يُرغموها على الخضوع لتلك القواعد.

ومع هذا فقد فتح النصب غير العاديّ في القرآن آفاقاً واسعةً أمام النحويّين لتفتيق قواعد جديدةٍ أغنت أبواب النصب في النحو العربيّ، ولكنّ اجتهاداتهم في هذا الباب، على كثرتها وغناها، لم تكن كافيةً للإحاطة بطبيعة النصب القرآنيّ. وإلى أن يتوصّل النحويّون، إذا توصّلوا، إلى صيغةٍ نحويةٍ وإعرابيةٍ دائمةٍ لهذا النوع من النصب، فإننا نقترح، بدلاً من الضياع في المتاهات النحوية، أن ندخله في أبواب الإعراب تحت اسم (المنصوب القرآنيّ) أو (النصب الالتفاتيّ).

وتتلخّص حالات النصب الالتفاتيّ في القرآن، وهي كثيرةٌ، في النماذج التالية التي تمثّل معظم أنواع هذا النصب وليس كلّها:

- ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 137-138].
- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: 177].
- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ [النساء: 4].
- ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: 7].
- ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: 24].
- ﴿فَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: 170].
- ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 61].
- ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: 145].
- ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: 17].

- ﴿وَإِنْ⁽¹⁰⁾ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: 111].
- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: 69].
- ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].
- ﴿وَكُلًّا إِنْسَانٍ أَلزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13].
- ﴿ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم: 34].
- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92].
- ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78].
- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمْرٌ مَّرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88].
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].
- ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: 3-5].
- ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58].
- ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 46 - 47].
- ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى. نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [المعارج: 15 - 16].
- ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبْرَى. نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 35 - 36].
- ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 3 - 4].
- ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 27-28].
- ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 13].
- ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 3-4].

وقد بذل النحويون جهوداً فوق التصوّر، ولم يكونوا مضطرين إلى ذلك أصلاً، لإيجاد مخارج نحوية تلائم قواعدهم لحالات النصب المحيرة هذه، فحالفهم الحظّ والمنطق في بعضها، وأخطأهم، كما هو منتظر، في كثير منها.

(10) بتخفيف النون على قراءة نافع.

أما أولئك المشككون في سماوية القرآن الكريم، ويدعون أن حالات النصب هذه، أو غيرها من أنواع الالتفات النحوي واللغوي، إنما هي "أخطاءً" نحوية لا أكثر ولا أقل، فيكفي لدحض اتهاماتهم، واتهامات كل متشكك، أن أعرض ما يلي:

أولاً - القرآن الكريم أقدم من القواعد، بل كان هو الحافز للنحويين واللغويين والبلاغيين على وضع قواعدهم، ومن غير القرآن ما كان لهم أن يضعوا قواعدهم في تلك المرحلة المبكرة من عمر اللغة العربية، فالقرآن هو الرقيب على تلك القواعد، وليست القواعد هي الرقبة على القرآن.

ثانياً - إذا أخطأ محمد في القرآن، وهو الذي اعتاد المشككون أن ينسبوا القرآن إليه، فلماذا لم يخطئ في الحديث الشريف؟ وهل كان في حديثه أكثر عناية وتنقيحاً منه في قرآنه، مع أن حجم حديثه يزيد عشرات الأضعاف على حجم القرآن، وأن حديثه هو حصيلة كلامه اليومي والعادي والمرتل مع الناس؟ وهل تسلم لغته من الأخطاء إذا ارتجل، ثم تمتلى بهذه الأخطاء إذا انفرد إلى نفسه وعكف، بعيداً عن أعين الناس، على تأليف نص سينسبه بعد قليل إلى إلهه؟

ثالثاً - الأخطاء اللغوية والنحوية تقع عادةً في مواقع قد يلتبس أمرها على المبتدئين أو الضعاف في الكتابة أو الخطابة أو النظم، فيرفعون مثلاً اسم (إن) لو تأخر مع تقدم شبه جملة عليه، فيقولون: (إن فيها سرّاً) بدلاً من (سرّاً)، ولكن ما من مبتدئ يخطئ فيقول: (الشمس مشرقة) هكذا بنصب (الشمس).

إن كثيراً من حالات الالتفات النحوي القرآني أقرب، لو قسناها إلى مقاييسنا النحوية، إلى حالة (الشمس مشرقة) التي لا يمكن أن يخطئ بها حتى المبتدئ. وأعد النظر إلى هذه الألفاظ في الآيات السابقة: (صبغة، وعد، نصيباً، كتاب، خيراً، ديناً، فسقاً، إماماً، سلاماً، ذرية، قول، ملة، صنع، فطرة، تنزيل، قولاً، حاجزين، نزاعة، قادرين، عيناً، ناقة، حمالة) لتبين الإصرار على التمييز والتفرد اللغوي لحالات النصب القرآني.

رابعاً - إذا كانت هناك أخطاءً حقاً أفلم يكن الشعراء والفصحاء من الصحابة قادرين على تداركها وتصحيحها ثم كتابة القرآن من غيرها، فيصلنا بهذا سليماً معافىً من تلك الأخطاء؟ بل، وهو الأهم، أفلم يكن في مثل هذه الأخطاء ما يكفي لصرف أولئك الصحابة عن الدين الجديد الذي "يخطئ" إلهه في أبسط قواعد الكتابة؟⁽¹¹⁾

والنصب ليس هو الظاهرة النحوية الوحيدة التي فاجأ القرآن بها العرب. فمخالفة القرآن لأعراف العرب النحوية مبثوثة في كل مكان من كتاب الله العزيز، ولكن الحديث عن هذه المخالفات، وإحصاءها وتفصيلها وتحليلها، موضعه كتابٌ متخصصٌ في اللغة أو النحو، وموجهٌ إلى شريحةٍ محدودةٍ من القراء، وليس كتاباً في الإعجاز اللغويّ التجديديّ للقرآن الكريم موجهاً إلى عامة الناس، كما وعدت القارئ ووعدت نفسي دائماً أن يكون.

التفات (الحذف والإثبات):

مع أنّ علم التجويد قد وضع إطاراً عاماً لقراءتنا للقرآن، فإنّه لم يُفسّر لنا كثيراً من الأعراف اللغوية الجديدة التي سنّها القرآن لنفسه، ولا بد للقارئ المتقن للقرآن من أن يلتزم بها، غير مكثفٍ في ذلك بالعودة إلى النصّ المكتوب الذي بين أيدينا، بل لا بدّ له من السماع والمناقلة الشفهية المتصلة الرواية حتّى تنتهي إلى الرسول ﷺ. وجانب السماع هذا لا يقلّ أهميّةً عند العلماء في توثيقنا للنصّ القرآنيّ عن جانب التوثيق الكتابي، بل قد يفوقه أهميّةً.

(11) المؤلم في أمر هؤلاء المشكّكين أنّ كثيراً منهم يتحدّث عن هذه "الأخطاء" وهم يجهلون حتّى قواعدنا النحوية البشرية أيضاً. وكم أثار سخريتي وإشفاقي معاً ذلك الذي أطلّ علينا من نافذة إحدى الفضائيات المشبوهة ليسخر من "أخطاء" القرآن قائلاً: تصوّروا أنّ القرآن يقول حيناً، وفي سورة واحدة، (ليس البرّ) بالنصب، ثم يعود فيقول بعد قليل (ليس البرّ) بالضمّ، ثم يصرون بعد ذلك أنّه كتاب الله، فما هذا الإله الذي يُخطئ في اللغة! ولم يدرك هذا الجاهل، وهو ما يدركه حتّى تلاميذ المرحلة الإعدادية، أنّ الآية الأولى (البقرة: 177) جاء فيها اللفظ (البرّ) منصوباً لأنه خبرٌ للفعل الناقص ﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم﴾. ولكنّ دخول حرف الجرّ (الباء) في الآية الثانية (البقرة: 189) قلب الأمر فأصبح (البرّ) اسماً لذلك الفعل ﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت﴾.

إنّ حذف الياء مثلاً من آخر الكلمة، أو إثباتها، لا يخضع في القرآن لأية قاعدة معروفة لدينا، وليس هناك من تفسيرٍ إلاّ تأويلات القراء واللغويين التي كثيراً ما تصيب أو تخطئ. وهو نوعٌ عجيبٌ من الالتفات يجعل القارئ منشداً باستمرار إلى ما يقرأ، ليفرّق، على مدى قراءته، بين القاعدة التقليديّة للفظ والعرف القرآنيّ الجديد.

ولم أحاول إحصاء عدد الحالات التي أسقط فيها القرآن ياء المتكلم من آخر الكلمة، ولكنها بالتأكيد حالات كثيرةٌ خالف فيها الأعراف اللغويّة المتداولة، فأسقط الياء لفظاً لا تقديراً. ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: 175].
- ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ [يوسف: 45].
- ﴿لئن أحرّتن إلى يوم القيامة﴾ [الإسراء: 62].
- ﴿إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً﴾ [الكهف: 39].
- ﴿إن هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: 92].
- ﴿قال رب انصُرني بما كذّبون﴾ [المؤمنون: 26 و39].
- ﴿قل يا عبّاد الذين آمنوا اتّقوا ربكم﴾ [الزمر: 10].
- ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل﴾ [الزمر: 39].

وفي الآيات الأولى والثالثة والرابعة والسابعة والثامنة ردّ على من قال إنّ سبب إسقاط الياء في القرآن هو مراعاة السجعة أو الفاصلة في الآيات التي قبلها أو بعدها، فقد وقع الإسقاط هنا في وسط الآيات الخمس (وخافون، أحرّتن، ترن، عبّاد، قوم) وليس في نهايتها، فلا دور للفاصلة إذن في حذف الياء أو إثباتها.

وإذا كانت الياء في الآيات الثماني السابقة ليست من أصل الكلمة (وقد كانت في جميع هذه الآيات ياء المتكلم) فإنّ الإسقاط كثيراً ما يصيب ياءً أصليّة، ومما لا تُختم به الآية أيضاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿واستمع يوم ينادِ المُنادِ مَنْ مكانٍ قريبٍ﴾ [ق: 41].

- ﴿قال ذلك ما كنا نبغِ فارتداً على آثارهما قصصاً﴾ [الكهف: 64].

ولا أكاد أعرف مثل هذا الإسقاط في أيّ من نصوصنا التراثية، الشعرية أو النثرية، ولا سيّما الياء الأصلية حين تقع في وسط العبارة. والشاهد الوحيد الذي عثرت عليه جاء في بيتٍ لشاعرٍ نجعل عصره وإن قيل إنّ له قصّةً مع الشاعر الأمويّ الفرزدق (ت110هـ)، وهو مُضَرَّس بن ربعيّ الأسديّ:

وِطْرْتُ بِمُنْضَلِي فِي يَعْمَلَاتِ

دَوَامِي الْأَيْدِ يَخْبِطُنَ السَّرِيحَا

والشاهد هو في إسقاطه الياء من (الأيدي) وهذا إسقاطٌ استدعته ضرورة الوزن، وهو ممّا تبيحه الضرورات الشعرية للشاعر. علماً أنّ للبيت روايةً أخرى تخلو من هذه الضرورة: (خِفافُ الوَطءِ يَخْبِطُنَ السَّرِيحَا) فيسقط بذلك الشاهد فيه.

وبإمكاننا أن نتصوّر الوضع المحيّر لهذا الجانب الالتفاتيّ في القرآن، بما يتضمّنه من التفاتٍ من العرف إلى غير المتعارف عليه، لو عرفنا إلى أيّ مدى تتجاوز وتتداخل حالات الحذف والإثبات، دون أي تفسيرٍ نهائيّ بين أيدينا لأسباب حذف هذه أو إثبات تلك، وذلك من خلال النموذج التالي المقتطع من سورة (الكهف):

- ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تُعلِّمَني ممّا علِّمتَ رُشدًا (66). قال إنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67). وكيف تُصْبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْرًا (68). قال سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابراً ولا أعصي لك أمراً (69). قال فإن اتَّبَعْتَنِي فلا تَسألُنِي عن شيءٍ حتّى أُحدِثَ لك منه ذِكْراً (70)﴾.

فقد حُذفت الياء، كتابةً ولفظاً، في الآية (66) فقال (تعلِّمَني)، وقد سبق أن حُذفت قبلها في الآية (64) أيضاً، كما رأينا قبل قليل، ولكنها أثبتت في الحالات الأربع الأخرى التي تلت في الآيتين (69 و70): (ستجدني، أعصي، اتبعني، تسألني). وإذا استطعنا تعليل بقاء الياء في الفعل (ستجدني)

بأنها جاءت في الآية متلوّةً بهمزة (إن) فقواعد التجويد تقتضي مدّ الياء قبل الهمز فلزم عدم حذف هذه الياء، فليس لدينا ما نعلّل به بقاءها في الأفعال الثلاثة الأخرى.

وقارن بين الفعل (يَهْدِينِي) في كلِّ من الآيتين الكريميتين التاليتين لترى كيف حذفت ياؤه في الأولى، كتابةً ولفظاً، ولم تُحذف في الثانية، ومن غير أيِّ سببٍ ظاهر فيما عدا أنّهما أنزلتا هكذا:

- ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 24].

- ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الفصص: 22].

ويتكرّر النموذج نفسه مع الفعل (اخشَونِي) في آيتين أخريين، وقد جاء في إحدهما بالياء، لفظاً وكتابةً، وفي الأخرى من غيرها:

- ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: 15].

- ﴿الْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 3].

ولكنّ الأغرب من هذا أن يصيب الإسقاط الواو أيضاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا﴾ [القمر: 6].

- ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: 17 - 18].

وقد يقال إنّ الإسقاط الكتابي هنا كان مراعاةً للإسقاط اللفظي؛ إذ تختفي الواو لفظاً في قراءتنا لكلِّ من الآيتين بسبب وجود ألف الوصل بعدها فنقرأها هكذا (يَدْعُد - سَدْعُد) ولكنّ الياء، شأنها شأن الألف أو الواو، لم تكن لتختفي لفظاً، في معظم الآيات الأخرى التي أُسقطت فيها، لو لم تختفِ كتابةً أيضاً.

ومن خلال مقارنةٍ سريعةٍ بين ثبوت الياء كتابةً في الفعل (نبغي) في قوله تعالى:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: 65]

وبين حذفها في الفعل (نبغ) في آية سورة (الكهف) التي وردت قبل قليل؛ من السهل أن نتبين خروج القراءة القرآنية، وأحياناً الكتابة القرآنية، عن الالتزام بقاعدة ثابتة معروفة تنضوي تحتها جميع الحالات اللغوية المشابهة.

ومع كثرة حالات الحذف هذه في القرآن وتوزعها على مختلف السور؛ فإنها تكاد تقتصر على الأسماء والأفعال المضارعة، وقل أن يلحق الحذف الفعلين الماضي والأمر ولكنه موجود مع ذلك، كما في الفعلين (وخافون، كذبون).

هذه الظاهرة تأخذ شكلاً بارزاً في سورة (الكهف) فيقع فيها الحذف ست مرات. وعلى عادة القرآن الكريم في كثير من ظواهره اللغوية، تتساوى في السورة حالات الحذف وحالات الإثبات للياء في الأسماء وأفعال المضارع، فنجد ست حالات للحذف في: (فهو المهتد - أن يهديني ربي - إن ترن أنا - أن يؤتيني خيراً - ما كنا نبغ - على أن تعلمن) مقابل ست حالات للإثبات في: (ستجديني إن شاء الله - ولا أعصي لك - فلا تسألني - لا تؤاخذني - ولا ترهقني - فلا تصاحبني).

ولكن ما هو أغرب من ظاهرة حذف الياء أن يصيب الإسقاط حرف الألف أيضاً، كما في قوله تعالى، وقد حذفت الألف كتابةً ولفظاً من الفعل (حاشا):

- ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا
مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31].

مع إقرارنا بأن (حاش) القرآنية، وقد وردت في الكتاب الكريم مرتين فقط كلتاهما في هذه السورة، قد اختلفت عن (حاشا) في لغتنا البشرية، سواء في معناها أو في عملها.

وفي آية أخرى من سورة (الكهف) تحذف الألف لفظاً من غير أن تحذف

كتابةً كما في اللفظ (لكنا) من قوله تعالى :

- ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 38]

وقد تثبت في مواضع أخرى كتابةً من غير إثباتها لفظاً، كما في اللفظين (سلاسلا) و(قواريرا)، من قوله تعالى :

- ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسَلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4].

- ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا. قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 15 - 16].

وهذا يعني عدم تلازم الحذف اللفظي بالضرورة مع الحذف الكتابي. ولا أعرف لمثل هذه الأنواع من الحذف، ولا سيما في درج الكلام، شبيهاً في الشعر الجاهلي، ولا في الحديث الشريف، ولا في آية صفحة أخرى من سجلّ تراثنا العربي حتى اليوم.

لقد ترددت كثيراً قبل أن أدرج هذه الظواهر الأخيرة تحت باب الالتفات، والحق أنها أدخلت في باب الالتفات اللغوي المحض، أو الفكري، منها في باب الالتفات البلاغي، ولكنها تحققت في النتيجة ما يحققه الالتفات الفني من حركة في النصّ المقروء، حين "تلفت" القارئ فجأةً وتهزّه بالتغيير، فنقله من حالة راتبة مستسلمة ومنسجمة مع العرف أو القاعدة؛ إلى حالة طارئة لم يكن يتوقعها. إنها انتقاله من المتوقع إلى غير المتوقع، وهو انتقال يكسر الرتوب الذي يؤدي بالقارئ إلى الحذر وربما إلى الشرود عما يقرأ.

وبمثل هذه الفلسفة يدافع النقاد المحدثون اليوم عن ثورة التحرر من القافية الموحدّة والرويّ الواحد، والخروج في أوزان الشعر الحديث عن قواعدها الخليلية ورتوبها وعن الالتزام الصارم بعدد تفعيلاتها⁽¹²⁾.

(12) راجع فصل (الأنواع العروضية الحديثة) من كتابنا :

- ساعي، أحمد بسام. حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية، مرجع سابق.

مواقع الالتفات في (المدثر):

ولو فتشنا عن جوانب الالتفات الجديدة هذه، بأنواعها المختلفة، في أوائل السور التي تنزلت من السماء، والتي اخترنا منها لبحثنا سورة (المدثر)، فسوف نتوقف عند خمسة عشر موقعاً على الأقل تتوزع بين أنواع شتى من هذا الفن، وهي:

- ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُضْلِيهِ سَقْرٌ﴾ (التفات الحوار: انعطف الحديث فجأةً من الوليد بن عتبة، وهو يُصدر أحكامه على القرآن، إلى الله تعالى وهو يصدر حكمه الإلهي على الوليد: سأضليه سقر).

- ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ. دَرَنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ (التفات الزمن: انتقل من الحديث عن الزمن المستقبل، يوم الحساب، إلى الزمن الحاضر: دَرَنِي "الآن"، وكأنَّ "ذلك" اليوم قد أصبح "هذا" اليوم).

- ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ (التفات الخطاب: انتقل الخطاب من المتكلم المفرد: أزيد، أنا، إلى جمع المتكلمين: لآياتنا، نحن، رغم أنَّ المتكلم هو الله تعالى في الحالين).

- ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ (التفات الخطاب: عاد الخطاب من جمع المتكلمين: لآياتنا، نحن، إلى المتكلم المفرد: سأرهقه، أنا، رغم أنَّ المتكلم هو الله تعالى في الحالين).

- ﴿سَأُضْلِيهِ سَقْرٌ... وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (التفات الخطاب: انتقل الحديث من المفرد المتكلم: أضليه، أنا، إلى جمع المتكلمين: جعلنا، نحن، رغم أنَّ المتكلم هو الله تعالى في الحالين).

- ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (التفات الحوار: انتقل الحديث من ضيقة إلى الضيقة المقابلة، وذلك بالانتقال من حديث الكافرين عن الله إلى حديث الله عنهم).

- ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (التفات الخطاب: انتقل من الغائب، المجرد من الضمير: الله، هو، إلى الغائب المسند إلى المخاطب: ربك، وقد توقعنا أن يقول: جنوده).
- ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ. وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلبَشَرِ﴾ (التفات الجنس: أعاد ضمير المؤنث (هي) على مذكر (القرآن أو الإسلام)، أو على غير مذكور على الأقل، وقارن هذا مع الآية 54 في السورة حيث ذكر الضمير: كلاً إنه تذكرة).
- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ. وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (التفات لفظي: توقعنا أن تتكرر "إذ" في الآية الثانية توازياً مع الأولى، ولكن، خلافاً لتوقعاتنا، تحوّل السياق إلى "إذا").
- ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبْرَى. نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ (التفات النصب: ظهر النصب في غير موقعه النحوي المعتاد).
- ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (التفات الخطاب: انتقل من جمع الغائبين: البشر، هم، إلى جمع المخاطبين: منكم، أنتم، فلم يقل: منهم).
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (التفات الزمن: انتقل الحديث من الزمن الحاضر، المسؤولية في الحياة الدنيا: بما كسبت رهينة، إلى مشهدٍ قادمٍ في اليوم الآخر: يتساءلون في الجنّات).
- ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمَجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (التفات الخطاب: انتقل من جمع الغائبين: هم، المجرمين، إلى جمع المخاطبين: ما سلككم، أنتم؟ فلم يقل: ما سلكهم؟).
- ﴿حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ. فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (التفات الخطاب: انتقل من جمع المتكلمين: آتانا، نحن، إلى جمع الغائبين: تنفعهم، هم، ولم يقل: تنفعنا).
- ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ. فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (التفات

عكسيّ في الزمن: انتقل الحديث من الزمن المستقبل، حين لا تنفعهم شفاعَةُ يوم الحساب، عائداً إلى الزمن الحاضر: فما لهم "الآن" مُعْرِضِينَ؟).

إنّ وجود خمسة عشر موقعاً للالتفات، على الأقلّ، وبأنواع مختلفة، في سُورَةٍ صغيرةٍ ومبكرةٍ النزول مثل (المدثر)، دلالةٌ واضحةٌ على حجم هذه الظاهرة الفنيّة وأهمّيّتها بين الظواهر الجديدة التي فاجأ بها القرآن العرب، ودلالةٌ على حجم الصدمة اللغويّة والبلاغيّة التي تلقّاها العربيّ الجاهليّ وهو يستمع إلى كلمات الوحي أوّل مرّة.